

الأسرة والتزايد الديمغرافي لدى الأرستقراطيات

الحاكمة في المغرب الوسيط

نموذج الارستقراطية المرابطية والموحدية

الحسين اسكان

كلية الاداب-ابن امسيك -
الدار البيضاء

El Houcine Askane

La Famille et la femme au Moyen Age au Maroc.

Résumé :

Etude des changements concernant la famille et la situation de la femme dus à l'islamisation du Maghreb.

Family and woman in the Middle Ages in Morocco

Abstract :

The paper aims at examining the transformations that took place in the personal status after the advent of Islam in Morocco through the changes that affected the family as a marital home, children, divorce, heritage, etc., and also through the changes that influenced women's status within the medieval Moroccan society.

الأسرة والتزايد الديمغرافي لدى الأرستقراطيات الحاكمة في المغرب الوسيط نموذج الاستقرائية المرابطة والموحدية

مقدمة

الظاهرة الديمغرافية تتأثر بعوامل عديدة ومتباينة، ومن ضمن تلك العوامل بعض المؤثرات الاجتماعية مثل دور نوعية الأسرة في نسبة التزايد الديمغرافي لدى الشرائح العليا للمجتمع من المغرب الوسيط. حيث إن بيوتات تلك الشرائح تتزايد بوتيرة سريعة واستثنائية بالمقارنة مع نسبة التزايد الديمغرافي العام آنذاك، وخاصة إذا كانت الأسرة أبيسية، وتقل نسبيا إذا كان نوع الأسرة أميسية. وللمقارنة بين تأثير كلا النوعين من الأسر على التزايد الديمغرافي نأخذ نموذج الأرستقراطية المرابطة التي لم تتمكن من التخلي كليا عن أعراف الأسرة الأميسية رغم التجديد الديني الذي قادته في القرن الخامس الهجري، ونموذج الاستقرائية الموحدية التي نجحت، إلى حد كبير، في تبني الأسرة الأبيسية بفعل الإصلاح الديني الذي قاده المهدي بن تومرت في القرن السادس الهجري.

وقبل الشروع في هذه المقارنة وما يمكن أن يكون لنسبة التزايد الديمغرافي من انعكاسات على الدولتين المرابطة والموحدية، سيكون من المفيد أن نستعرض بإيجاز شديد لمميزات الأسرة من المغرب الوسيط والتحولت التي عرفتھا، متناولين الموضوع على الشكل التالي: الخصائص العامة للأسرة الأميسية كنقطة أولى،

– الإسلام والتحول نحو الأسرة الأبيسية كنقطة ثانية

– مقارنة التزايد الديمغرافي لدى الاستقرائية المرابطة والموحدية كنقطة أخيرة.

I. الخصائص العامة للأسرة الأميسية

هذا النوع من الأسرة كان هو السائر في بداية العصور الوسطى بالصحراء الإفريقية الكبرى والمناطق المحيطة بها شمالا وجنوبا، كمصر الفرعونية وبلدان الشمال الإفريقي، ونجده لدى كثير من الشعوب الزنجية جنوب الصحراء كمملكة غانا في القرن الخامس الهجري⁽¹⁾. بل ظل قائما في بعض المناطق منها إلى القرن العشرين⁽²⁾. أما خصائص هذه الأسرة فيمكن حصرها في أربع خصائص كبرى، حسب ما ورد في المصادر، وبالمختصر في رحلة ابن بطوطة التي أتت فيها مجموعة⁽³⁾.

الخاصية الأولى والأساسية تتعلق بمكان إقامة الزوجين التي تحدد نوعية الأسرة وبقيّة الخصائص الأخرى مثل خط النسب، والارث، ومكانة كل جنس داخل الأسرة. هذه الإقامة في الأسرة الأميسية تكون عند أقارب الزوجة أب، لإخوان وهم الذين يوفرون الحماية للمرأة، وهذا النوع من الإقامة هو ما يصطلح عليه الانثربولوجيون «بالإقامة الخؤولية» أو «الإقامة الرحمية».

وقد لاحظ ابن بطوطة سنة 753 هـ هذه الخاصية لدى قبيلة مسوفة في مدينة ولاتة⁽⁴⁾، بل واستمرت لدى قبائل التوارك إلى بداية هذا القرن، وهم أحفاد القبائل الصنهاجية.

الخاصية الثانية مرتبطة بالأولى وهي خط النسب الذي هو نسب رحمي، حيث ينتسب الأبناء إذا نسبوا للبيت للأخوال، وإذا نسبوا إلى شخص معين فإنهم ينسبون إلى أمهم، والأمثلة عن الأعلام الذين نسبوا إلى أمهم كثيرة قبل القرن السابع الهجري كثيرة، مثل ابن تومرت، بنو غانية، ابن فاطمة القائد المرابطي، وابن عائشة⁽⁵⁾، وفي التشوف أمثلة أخرى⁽⁶⁾.

والقبيلة إذا نسبت إلى اسم علم -وهو نادر- تنسب إلى امرأة. وذكر النسابة للقبائل الأمازيغية العديد منها⁽⁷⁾، كما ذكروا بعض القبائل المشتركة في النسب بالانتماء لأم واحدة. أما الأنساب التي وضعت بعد الفتح الإسلامي للمغرب لتلك القبائل والتي حاولت إرجاع أصول المغاربة للمشرق وإلى نسب ذكوري لم تستطع الروايات التي وصلتنا أن تخفي الطابع الأميسي، مثل الرواية المتداولة بين المؤرخين التي ترجع جد البرانس إلى بر وإلى مضر، وكيف أن أمه هربت به

خوفا عليه من إخوانه، إلى أخواله البربر: « فنزل بر بين أخواله من البربر في أحسن جوار وأعز دار، فاعتز بأخواله وقوى بهم عضده » (8).

الخاصية الثالثة تتعلق بالارث وتنظيمه، ثروة العائلة المادية تؤول إلى البنات وتنظمها أعراف معينة، وقد تأثر المذهب الفاطمي بهذا العرف حيث أقر حق البنت في الانفراد بالارث كله إذا لم يكن مع أخ ذكر (9)، وذلك في القرن 4، 5 الهجريين، ونجد نفس العرف خلال نفس المدة بمدينة فاس وأقره فقهاؤها واعتبروه مما جرى العمل به بفاس (10).

أما الأبناء فإنهم يرثون أخوالهم، حسب ابن بطوطة، لدى قبيلة مسوفة السالفة الذكر، والواقع أن الأبناء يرثون خالهم إلا في مسائل معنوية كالسيف والقيادة أو الزعامة حسب العرف السائر لدى التوارك أوائل هذا القرن، فالملك لدى قبائل صنهاجة في القرن 8 هـ يعود إلى أبناء الأخت حسب شهادة ابن بطوطة (11)، ونفس الشيء ذكره البكري عن ملك غانة في القرن الخامس الهجري (12). وانتقال زعامة المرابطين من يحيى بن إبراهيم الكدالي إلى لمتونة ما هو على ما يبدو إلا تطبيقا لهذا العرف (3).

الخاصية الرابعة تتعلق بمكانة المرأة في الأسرة وفي المجتمع، وهي مكانة تفوق مكانة الرجل، ويقول ابن بطوطة عن نساء مسوفة: « وهن أعظم شأنًا من الرجال ». فالمرأة تلعب أدوارا مهمة في جميع مجالات الحياة في المجال الاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والسياسي. كما أن لها أدوارا محددة في زمن الحرب، ففي المجال الاجتماعي الذي يهمنا هنا نشير إلى أنها تحتفظ بحق الطلاق، ومغادرة الزوج لمكان الإقامة الزوجية بعد طلاقا. وفي هذا الصدد ليس أبو بكر بن عمر هو الذي طلق زينب النفزاوية بعد زواج قصير إشفافا عليها من مشاق الصحراء - كما توهمنا بذلك المصادر - بل هي التي طلقته عندما لم يقم معها عند أهلها بأعمات. وفي هذا السياق كذلك يمكن فهم العبارة التي ترددها المصادر في شأن عبد الله بن ياسين من اشتهاره بأنه « مزواج مطلق » (14). ونشير كذلك إلى أن الزواج في هذه الأسرة أحادي ولا يجمع الرجل بين عدة نساء سواء كن حرائر أو جوارى.

ويخبرنا صاحب بيوتات فاس بأن يوسف بن تاشفين « كانت عنده امرأة واحدة ولم تكن له جارية » (15) والواقع أنه عمر طويلا وتزوج عدة نساء لكنه لم يجمع بينهن أفهن جارية أم ولي عهده.

وبالإضافة إلى ذلك كانت المرأة تتمتع بحرية واسعة، ويظهر ذلك من خلال السفور والاختلاط مع الرجال والتأثير على سير الأحداث السياسية وغيرها، والأمثلة على ذلك كثيرة. وتلعب الجدات دورا أساسيا في حياة أحفادها وليست كنزة من دولة الأدارسة الوحيدة في هذا المجال (16).

في زمن الحرب فالمرأة محترمة وموقرة من طرف الفرقاء المتحاربين، وتنتقل بكل حرية وفي أمن بينهم وتشمل حرمتها كل من ينتقل معها من الرجال، والأمثلة على هذه الظاهرة نجدها في القرن الثالث الهجري عند الكتاميين (17)، وعند قبيلة حاحة في القرن 10 الهجري (18).

تكفل المرأة كذلك بالأسرى في سجنهم وبإيصالهم إلى ذويهم في حالة إطلاق سراحهم (19)، والأمثلة على ذلك كثيرة. كما تقوم بتحميس المقاتلين على الاستماتة من خلال إنشاد الأشعار، وهذا الإنشاد هو ما سماه ابن خلدون تزوكايت (20).

هذه بإيجاز بعض خصائص الأسرة الأميسية التي وجدها الإسلام في بلاد المغرب وأفريقيا وهي لاتسمع بتعدد الزوجات واتخاذ الجوارى على عكس الأسرة الأيبسية التي حاول الإسلام ترسيخها خلال العصر الوسيط.

II - الإسلام والتحول نحو الأسرة الأيبسية:

لم تتمكن الحضارات الوافدة على شمال إفريقيا من تحويل الأسرة الأميسية إلى الأسرة الأيبسية، في حين بدأ هذا التحول مع تقدم الإسلام بين الأمازيغ ومما يميز هذا التحول:

1 - إنه كان بطيئا، بل صمدت الأسرة الأميسية في بعض الجهات رغم وصول الإسلام

لها بعدة قرون، مثل صمودها في القبائل الصنهاجية الصحراوية المعروفين بالملثمين، بل

إن بعض ظواهرها استمرت إلى هذا القرن، مثل إطلاق الخال في الأمازيغية والدارجة

على الرجل الغريب، وبعض الظواهر الأخرى في بعض الجهات مثل تسوق المرأة في جبال الريف ومثل تمزالت التي ترجمها الفقهاء السوسيون حرفيا بالجرابة أو السعاية» (21).

2- إن سرعة أو بطء التحول تحكمت فيه معطيات جغرافية وحضارية، أهم منطقة صمدت فيه الأسرة الأيبسية هي الصحراء، وأسرع منطقة تأثرت بالأسرة الأيبسية هي المدن، تليها السهول ثم الجبال.

3- هذا التحول تم بعد فترة من التعايش بين النوعين دام حسب المناطق عدة قرون. وبدأ التحولينال المسائل البسيطة السهلة التغيير مثل نسب الأبناء، والإقامة الزوجية، أما الارث فقد تركته البنات لعائلتهن «حياء» (22)، فتتج عن ذلك عدم توريثهن منذ القرن الخامس الهجري إلى هذا القرن، والتي أصبحت عادة بدورها (23).

4- أهم مرحلة تسارعت فيها وتيرة هذا التحول في شمال الصحراء هو القرن السادس الهجري بفعل الإصلاح الديني الموحدى وعوامل أخرى، وقد لوحظ مثلا بعد هذه الفترة ندرة انتساب الأبناء لأمهاتهم، وكثر استعمال الحجاب في المدن المهمة، ولم تعد المصادر تتحدث عن النساء بتلك المدن كما هو الشأن قبل ذلك.

III - مقارنة بين التزايد الديموغرافي لدى الأرستقراطية المرابطية والموحدية

للقيام بهذه المقارنة نرجع إلى اللوائح التي تمدنا بها المصادر، والتي تشتمل على عدد الأبناء الذكور الذين يخلفهم حاكم معين ولا تشتمل على عدد البنات إلا في النادر. وبالرغم من ذلك يمكن الاستفادة منها واتخاذها كمؤشر على نسبة التزايد الديموغرافي في صفوف تلك الأرستقراطية الحاكمة.

بالنسبة للأرستقراطية الموحدية التي تبنت الأسرة الأيبسية من تعدد الزوجات واتخاذ الجوارى منذ فتوحاتهم الأولى، نلاحظ لديهم عددا كبيرا سواء في البيت الحاكم بين بني عبد

المومن أو لدى الأشياخ. فقد خلف الخلفاء الأربعة الأوائل في مدة قرن تقريبا 53 أميراً موزعين على الشكل التالي:

عبد المومن خلف 16 ولدا.

يوسف العسري 18 ولدا

يعقوب المنصور 16 ولدا

محمد الناصر 3 أولاد فقط لأنه توفي في شبابه (24)

وإذا قمنا بعملية حسابية بضرب هذه الأرقام في بعضها سنصل إلى بضعة الآف من الأمراء في مدة قرن من الزمن، ولو بحثنا عن معدل تزايدهم خلال كل 25 سنة: $(53\% = 4 = 13)$ سنجد أنهم يتضاعفون 13 مرة. وفي كلتا الحالتين نحن أمام انفجار ديموغرافي حقيقي داخل البيت الحاكم، مادام الأمراء يتجاوزون بسهولة الألف أمير، ولا بد أن يكون لذلك أثره على الدولة.

أما التزايد لدى الأشياخ فهو بدوره كبير، لكن دون أن يصل إلى المستوى المذكور أعلاه، يقول عبد الواحد المراكشي عن كبيرهم أبي حفص الهنتاتي بأنه «خرج من صلبه خلق كثير» وعدد له أحد عشر ولدا بأسمائهم، ولاحظ أن الأشياخ سواء من أهل الجماعة أو أهل الخمسين بأنهم خلق كثير، معللا كثرتهم بانضمام أناس آخرين لهم (25)، وهو وهم منه على ما يبدو.

ومما يؤكد التزايد خلال قرن من الزمن أن المأمون قتل منهم في مراكش وحدها أثناء انقلابه المذهبي والسياسي سنة 629 هـ أكثر من 100 شيخ (26)، ونعلم أن الأشياخ الموحدين في ولايات الامبراطورية أكثر بكثير من الموحدين بمراكش، بل تذهب بعض الرويات التاريخية إلى أن المأمون قتل من الناكثين بيعته بمراكش 14000 شخص وعلق رؤوسهم على سور مراكش (27)، ولا شك في أن هذا مبالغ فيه أو وقع فيه خطأ في النسخ، فمما لا شك فيه أن الأشياخ الذين كانوا في أوائل القرن 6 هـ أصبحوا بدورهم أكثر من الألف من أوائل القرن السابع الهجري وتضاعف عددهم عدة مرات.

وعن التزايد لدى الأرستقراطية المرابطية التي لم تمارس تعدد الزوجات والتسري بشكل كبير نلاحظ ضعف نسبة التزايد في البيت الحاكم وبالتالي لدى الاستقرارية المرابطية، فأكبر عدد من الأبناء خلفه أمير عاش قرنا من الزمن هو أربعة أولاد وبناتان مذكورتان باسمهما (28)، وهو يوسف

بن تاشفين، أما ابنه علي فلم يخلف إلا 3 أولاد⁽²⁹⁾، أما بقية الأمراء المرابطين فلم تذكر المصادر عدد أبنائهم، ونخلص من هذا أن التزايد الديموغرافي لدى الملثمين يقل عن نظيره الموحي بثلاث مرات أو أربع بالرغم من تشابه الظروف السوسيو-اقتصادية لكلا الأرستقراطيتين بحكم احتكارهم لجل الفائض الاقتصادي في عهدهم.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن نوعية الأسرة لا علاقة لها بالتزايد العام للسكان، بل ينحصر تأثيره على النخبة الحاكمة. فما هي نتائج هذا التزايد الديموغرافي على الدولتين المرابطية والموحدية؟

في الدولة المرابطية التي لم تعرف انفجاراً ديموغرافياً في عصبيتها الحاكمة، لم يتفكك بيتها الحاكم أو بيوتات الملثمين عموماً من جراء ذلك التزايد المعتدل، وهذا ما يفسر جزئياً غياب الصراع على السلطة بين الأمراء من جهة، وبينهم وبين بيوتات الملثمين.

في الدولة الموحدية خلق الانفجار الديموغرافي ضغطاً كبيراً على موارد الدولة التي لا تسائر في نموها نسبة التزايد الديموغرافي. ومن جهة ثانية أذكى هذا التزايد التنافس على المناصب الإدارية والعسكرية بين الموحدين. لكن أخطر النتائج هو الصراع بين أفراد البيت الحاكم من ذرية عبد المومن حول الخلافة، وحدثت أول أزمة بين الأمراء بعد وفاة عبد المومن سنة 558 هـ واستمرت إلى عهد يعقوب المنصور لتخف حدتها بعد ذلك وتظهر بقوة بعد 620 هـ، مما ساهم في إضعاف الدولة، وامتد هذا الصراع والتنافس ليشمل الأشياء، فتحدث في بيوتاتهم انقسامات مثل الانقسام الذي شهده بيت أبي حفص إلى فريقين فريق يمثل الوزير ابن يوجان، وفريق ثان يمثل ابن الشهيد وشبّهت العداوة التي قامت بينهما بالعداوة التي عرفها البيت العلوي والبيت الهاشمي⁽³⁰⁾.

الهوامش

- 1- البكري أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب . تحقيق : اديان فان ليوفن ، ط. تونس، الدار العربية للكتاب، 1992، ص. 880.
- 2 - السويدي محمد: بدو الطوارق بين الثبات والتغيير. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص. 93-94 وانظر كذلك مادة التوارك في: 830 م Encyclopédie berbère. T.VI
- 3 - ابن بطوطة محمد اللواتي الطنجي: تحفة النظار من غرائب الأمصار وعجائب الأمصار. تحقيق : علي المنتصب، بيروت، لبنان، ط2. ج2. ص. 777.
- 4 - المرجع السابق، ص. 777 وما بعدها.
- 5 - انظر مقالا لنا بعنوان: « المرأة الصنهاجية ». مجلة أمل، عدد مزدوج 13-14، ص. 65 وما بعدها.
- 6 - التادلي ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف . تحقيق أحمد توفيق : منشورات كلية الآداب، الرباط، 1984.
- صفحات: 162، 207، 217، 234، 422، 427، 408، 403، 283، 249.
- 7 - ابن خلدون عبد الرحمان: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج6، ص. 2، 90، 91، 123، 152، 203.
- 8 - ابن أبي زرع علي الفاسي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 15-16 وتناقلتها مصادر أخرى مثل ابن خلدون في العبر، والكانوني في أسفي وما إليه...
- 9 - ابن غداري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق: برونسسال ليفي، وكولان، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج1، ص. 159. وانظر كذلك مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار. نشر سعد زغلول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص. 205.
- 10- هاشم العلوي القاسمي: مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري . أطروحة دكتوراه الدولة، مرقونة بكلية الآداب، ظهر المهراس فاس. ص. 853، وانظر الطبعة التي نشرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط.
- 11 - ابن بطوطة: « تحفة النظار... »، مرجع سابق، ص. 777-778.
- 12- البكري: « المغرب ». مرجع سابق. ص. 880
- 13- الفردبيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي. ترجمة : عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، ص. 288.
- 14 - ابن غداري: « المغرب »، مرجع سابق، ج4، نشر إحسان عباس، دار الثقافة لبنان، ط. 1983، ص. 16.
- 15 - ابن الأحمر إسماعيل: بيوتات فاس الكبرى. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 30.

- 16 - البكري: المغرب . تحقيق: دوسلان، ط باريس، 1965، ص. 151 حيث جاء أن أبا المنتصر سمغون بن محمد «تولى إمارة سجلماسة سنة 331 هـ. وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وتدير أمره جدته».
- 17 - ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب...، مرجع سابق، ج1، ص، 126، وكذلك : الموسوعة البربرية ، مادة «التوارك»، السابق ذكرها.
- 18 - الحسن الوزان : وصف افريقيا . تحقيق : محمد حجي و محمد الأخضر، من منشورات الجمعية المغربية للترجمة والنشر، الرباط، 1986، ص. 77.
- 19 - ابن غداري المراكشي، 'البيان...، الجزء الذي حققه محمد الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1985، ص. 269.
- 20 - ابن الحاج النميري: فيض العباب وافاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب. نشر: محمد بن شقرون، الرباط ، بدون تاريخ، ص. 68-69، وعن كلمة تزوكايت انظر مقدمة ابن خلدون، ط. دار الكتاب اللبناني، ص. 458.
- 21 - أفاعمر: مسألة النقود من تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر. منشورات كلية الآداب بأكادير سنة 1988، ص. 86.
- 22 - الونشريسي: المعيار المغرب من فتاوى افريقيا والأندلس والمغرب . منشورات الجمعية المغربية للترجمة والنشر، الرباط، ج. 11، ص. 293. وعن عادة تعمير الأزواج في أموال زوجاتهم على وجه «الارفاق» بزويلة والمهدية، ج. 9، ص. 150.
- 23 - عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين بالأندلس . ط لجنة الترجمة والتأليف والنشر، ط. 1، 1964، القسم الأول، ص. 246.
- 24 - المراكشي عبد الواحد : المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق: سعيد العريان، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة السابعة، 1978، ص. 289، 256، 379، 439.
- 25 - المراكشي عبد الواحد: المعجب . مصدر سابق، ص. 480-481.
- 26 - عبد الرحمان ابن خلدون : كتاب العبر...، مصدر سابق، الجزء السادس، ص. 353.
- 27 - مجهول، الحلل الموشية في الأخبار المراكشية . تحقيق : سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص. 165.
- 28 - ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس...، دار الطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 138.
- 29 - ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص. 157.
- 30 - عبد المنعم الحميمري : الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط 2، 1984، ص. 175-176.

